مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 307 - 324 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

التجليَّات الثَّقافية للمرجعيَّة الشِّيعيَة فِي شِعْر الشَّريف الرَّضي (359هـ-406هـ)

The Cultural Manifestations of the Shiite Reference in the Poetry of Sharif al-Radi (359 AH-406 AH)

Elghalia Aidouni[1] [*] ط .د الغالية عيدوني[1]
Fatiha Seridi [2] د. فتيحة سريدي[2]
مخبر الشعريات وتحليل الخطاب
جامعة باجي مختار عنابة(الجزائر)
Laboratory Of Poetics And Discourse Analysis, university Badji Mokhtar Anaba (Algeria)
aidounielghalia21@gmail.com [1]/ fatihaseridi585@yahoo.com[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/29	تاريخ القبول: 2021/08/03	تاريخ النشر: 2022/03/02

مُلخَّص البَحث

مِنْ مُنطَلق التعامُل معَ النَّص الأدَبي في ضَوء الثَّقافَة التي أنتجَته، جَاءَتْ الدّراسَةُ للبحث عَن المرجعيَّة الشّيعيَّة في قصَائد الشَّريف الرَّضي (359هـ-406هـ)، باعتبَارها أحد أهمّ الرَّوافدِ الثَّقَافيةِ المغذّيةِ لخطَابَاته الشّعريَّة، وقَد سعَى هذا البحثُ للإجابَة عن إشكالٍ رئيسٍ هُوَ: فيمَ تتجلَّى أهَمّ المنطلقَاتِ الفِكريةِ للتّشيُّع في قصَائِد الشَّريف الرَّضِي؟

وللتَّعرفِ على تجلِّياتِ هذَا المؤَثِّر الثَّقافيِّ البَارزِ، والوُقُوفِ علَى مَا وراءه مِن معتقدَاتٍ راسخةٍ في ذهنِ الشَّاعر، اتبعنَا المنهَجَ الوصْفيَّ التحْليليَّ لأنّه الأنسَب لتحليلِ الأبياتِ الشِّعريَّة، وكشفِ مَا تُبطِنُه مِنْ دلالاتٍ.

لنخلُصَ في الأخِير إلى أنَّ المتنَ الشِّعري للشَّريف الرَّضي غَنيٌّ بالمعتقداتِ الشِّيعيَّةِ، والتيِّ لم يكُن حضُورهَا مجَالاً لإظْهَارِ براعَتِهِ الفنيَّة، بقَدْر مَا كانَ تسَربًا في الخِطاب تحكُمه حالةٌ شعوريةٌ ورغبةٌ أيديولوجية.

الكلمات المفتاحية: ثقَافة، مرجعيَة، شيعَة، شِعر، شريف الرَّضي.

Abstract :

In the process of studying the literary text in the light of its culture, this study aims to explore the Shiite reference in the poems of Sharif Radi (359 AH -406 e), as one of the most important cultural tributaries in poetry. On this basis, this research has sought to answer the following question: what are the most important intellectual bases of Shi'ism in the poems of Sharif Radi?

To identify the cultural manifestation and the deeply rooted beliefs in the poet's mind, we followed the descriptive-analytical approach as it is the most suitable. As

[*] الغالية عيدوني: aidounielghalia21@gmail.com

a conclusion, the poetic text of Sharif Al Radi is rich in Shiite beliefs which was not an opportunity to show his artistic prowess, as much as it was an ideological leakage in his discourse.
key words: culture, reference, Shiites, poetry, Sharif Al-Radi.

مقدمة:

يُعدُّ العَصرُ العبَّاسيّ عصرَ أنظمةٍ ثقافيةٍ بامتياز، فيهِ بدَت التجَاذبات الدِّينيَّة، والاجتمَاعيَّة، والسيَاسِية، والإيديولوجِيَة في أوضحِ صُورهَا، وكان للمُلابساتِ الخارجيَةِ انعكاسٌ كبِير على الأدبِ، إذْ تظَلُّ الثقافَة الموجِّه الرئيس والمحرِّك الفاعِل الذِّي يمدُّ الأعمالَ الأدبيةَ بمعينٍ لا ينضبُ من المغذِّيَات المختلفةِ، التِّي بهَا يتقوّى العملُ الأدبيُّ ويتماسَكُ.

منَ هذَا المنطلقِ، كان من الصُّعوبَة بمكانٍ فصل أيّ عملٍ أدبيٍّ عن مرجعيَّاته الثَّقافيةِ، وأيّ محاولةٍ لتحييدِ الوظيفَةِ المرجِعيَّةِ عنِ الخطَاب الأدبيِّ يعدُّ ضربًا منَ العبثِ النَّقديِّ.

ولما كانَت المؤثِّراتُ الثَّقافيَّة في شِعْر "الشّريف الرّضي" عديدةً، فقد وقعَ اختيارُنا على أكثرهَا هيمنةً وتأثيرًا في شعرِهِ، وهي المرجعيةُ الدِّينية التِّي تُعدُّ مِنَ أهمِّ الرَّوافدِ ذاتِ الأثرِ البالغِ علَى المجتمعِ عامَّة، وعلى الشَّاعر كفردٍ فاعلٍ فيهِ على وجهِ الخُصوص، فجَاء هذا البحثُ ليجيبَ عن الإشكالية الآتية: ما هي أبرز المعتقدَات الشِّيعيَّة التِّي طبَعَت جزء غيرَ يسير مِنْ قصَائدَ الشَّريف الرَّضي؟

تتبَع هذه الإشكَاليةَ بعضُ الأسئلة الفَرعِيةُ نذكرُ أهمَّها:

-ما هي دوافع هيْمنَة المعتقدَات الشِّيعية في نُصُوص الشَّريف الرَّضي الشِّعرية؟

- وهل كَان تشيّع الشَّريفِ الرّضي براعَة فنية؟ أم غايَة ايديولوجية؟

انطلاقًا مِنْ الإشكَاليةِ السَّابقة وغيرها مِنَ الأسئلةِ الفَرعيةِ المتمِّمةِ لهَا، قُمنَا بتقسيم البحثِ إلى عنَاصر عديدةٍ قصدَ الإجابةِ عنهَا، فكانَ التَّطرقُ إلى: تعريفِ كل من مصطلحِ المرجِعيَّة، والشِّيعَة لغةً واصطلاحًا على الترتيبِ، ثمَّ التَّوقف عندَ أهمِّ المنطلقاتِ الفكريةِ للتَّشيع في قصَائدِه: كالوَلاء المطلقِ لأهلِ البيتِ، قداسَةُ أرضِ الطَّف ويوم عاشُوراء، استحضَار الشُّعور القديمِ للشِّيعَة بالخطيئـة، المنَادَاة بالثَّأرِ تحْتَ شِعَار "يا لثَاراتِ الحُسَين"، الاستشفاء بترابُ قَبر الحُسَين.

أولا/ تعريف المرجِعيَّة:

1- المرجعية لغة:

جاء في لسَانِ العربِ في تحديدُ دلالَة "المرجع" قوله: رَجَعَ، يرجِعُ، رَجْعًا، ورُجُوعًا، ورَجْعانًا، ومَرجِعًا، ومرجِعَةً، ضدّ الصّرف، وفي التنزيل(إنَّ إلَى ربِّك الرُّجْعَى)، أي الرُّجُوع والمرجَعُ مصدرٌ على وزنِ فُعلى، وفيهِ(إلىَ اللهِ مرجِعُكُمْ جَمِيعًا)، أي رُجُوعُكُمْ"[1]

ووردَ في المعْجم الوسِيط المرجِعَ "محلَّ الرُّجُوع، والأصلِ، وأسفَل الكتابِ، ومَا يرجِع إليهِ علم أو أدَب مَا عَالم أو كتَاب "[2]

يبدُو ممَّا تقدَّم أنَّ مصطلَح "مرجعيَّة" بكسرِ الجيمِ مصدرٌ صناعيٌّ مِن (مَرْجِع)، ويرتكِزُ مفهومُه كمَا جَاءَ في الثَّقافَة العَربيَّة القديمَة حوْلَ مَعْنى فعلِ "الرُّجُوعِ".

2- المرجعيَّة اصطلاحًا:

أ-مفهوم المرجعيَّة في الثقافةِ الغربيةِ (référence):

يعودُ ظهورٌ هذَا المصطلحِ إلى الثقَافةِ الإنجليزيةِ أوّلا لينتقلَ بعدهَا إلى اللُّغة الفرنسِية، ومن أشْهَرِ مَا ارتبَط بهِ مفهُومُ المرجِعيَّة في الثقافَةِ الغربيَّة هُوَ الوظيفَةُ المرجعيَّة (**fonction référentielle**) التي أشَار إليهَا رومان جاكبسون بأنَّها "أساسُ كلّ تواصلٍ، وهي تحدِّدُ العلاقَات بين المرسلة، والشَّيء أو الغرضِ الذِّي ترجِع إليْهِ، وهيَ أكثر وظَائِفَ اللغة أهميَّة في عمليَّة التَّواصلِ ذاتهَا، فهذهِ الوظيفَة المسمَّاة "تعيينية" أو "تعريفية" أو "مرجعيَّة" هي العمَل الرَّئيسِّي للعدِيد من المرسَلات، في حينِ لا تلعَب الوظَائِف الأخْرى في مرسَلات كهذِه، سوَى دور ثَانَوي"[3].

تتحدَّدُ الوظيفَة المرجعيَّة المشَار إليهَا في هذَا القَولِ بالسِّيَاق الذِّي أُنتَجَت فيهِ الرِّسَالَة، وهي التيِّ تحدُ مجمَوع العلاقاتِ القائمةِ بين الرّسالَة المنتَجَة، ومختلفِ الظُّروفِ، والسِّياقاتِ التي أحَاطَت بهَا لحظَة الإنتَاج. فالمرجعيَّة هنا تعنِي الرَّوافِد الثقافيَّة والمؤثرات الخارجيَّة التي تسَاهِم في العمليَّة التواصليَّة.

وتتجسَّد تمثّلاتُ الوظيفة المرجِعيَّة في الوسَط الواسعِ الذي ينطلقُ منهُ الكاتِبُ في بناء رسالتِه اللُّغويَّة أو الأدبيَّة، ويُطْلقُ النقَّادُ علَى هذَا الوسَط مصْطَلح "المرجعيَّات الثقَافيَّة" وهو يضمُّ مجموعَة منَ المكوِّنات مثل: البيئَة الاجتماعيِة، المنطلقَات السياسيَة، المرجعيَّة الدينيَّة، المرجعيَّات المتخيَّلة كالأسطورة ،والرمز..

يتَّضِحُ من كلِّ ما سبَق أنَّ المرجعيَّة في تعريفٍ مختصرٍ وبسيطٍ تعنِي "العَلاقَة بيْن العَلامَة اللِّسَانيَة والمرجَعَ أو الشَّيء الخَارجّي"[4].

ب- مفهُومُ المرجِعيَّة عندَ العَرب حديثًا:

يذهَبُ البَاحثُ **عمر بلخير** إلَى أنَّ "الرُّجُوع إلى المعَاجِم المتخصِّصَة يُظهرُ لنَا إجمَاعًا على تحديدِ المرجعيَّة بأنهَا تلكَ الوظيفَة التيِّ تسمَحُ للأشكَال اللُّغويَّة أنْ تُحِيل علَى عنَاصِر من العالَم، والتخَاطب البشَري أساسًا يقُوم على هذهِ العلاقَة".[5]

وليسَ ببَعيدٍ عن هذَا المفهُوم يرى **عبد الملك مرتاض** أنَّ المرجعَ "يعْني وبكلِّ بسَاطَة، أن اللَّفْظَ كذَا، يحدِّد الشَّيء كذَا، للعَالَم الخَارجي، أو يُحيلُ علَيْهِ"[6]

من خلال المفهومَين السَّابقين، يتضحُ أن مرجعيَّة أيِّ نص تعني الإحالَة إلى شَيء خارج النَّص، وهي جملَة الوظَائف التيِّ تتعلَّق بالأشكَال اللُّغويَة، حيثُ تُحِيل هذه الوظَائِف المتكلِّم علَى الواقِع قصْد غايَة أسَاسيَة وهي التوَاصُل.

ثانيا/ تَعْريـف الشّيعَـــة:

1- الشِّيعَة لغَـةً:

يُقَال في اللُّغَة: "فلان من شيعَة فلان أي: يرى رأيَه، وشَيَّعتُ الرَّجلَ عَلى الأمرِ تشْييعًا إذَا أعَنتُه عَلَيْه"[7]، تعني لفظة الشِّيعَةُ في اللُّغة الإتِّبَاع والموالاة، كما تعْني المسَانَدَة والإعَانَة على أمرٍ مَا.

وقد وردَت كلمَة شيعَة ومشتقَّاتهَا في القُرآن الكَريم بمعَانٍ مختَلفَةٍ فهَي تأتِي تَارَة بمعنَى الفرقَة، وتَارة أُخْرى بمعْنَى الأمَّة أو الجمَاعَة من النَّاس، قال تعَالى: "ثم لنَنْزِعَنَّ مِنَ كلِّ شيعَةٍ أيُّهم أشدُّ على الرَّحمن عِتيًّا"[8]، وقال أيضا: "إنَّ الذِّين فرَّقوا دِينَهُم وكَانُوا شِيَعًا لسْتَ مِنهُمْ فِي شَيْءٍ "[9]،ثم نجدها في موضع آخر تجيء بمعنى الأمثال والنظائر قال تعالي "ولَقَدْ أَهْلكْنَا أشيَاعَكُم فَهَلْ مِنْ مدَّكِر ".[10]

وتأتي في سياق قرآني آخر بدلالة المؤَالِي والمنَاصِر والمتَابع، قال تعالى في محكم تنزيله: "فوجَدَ فيهَا رجُلَينِ يقْتتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وهذَا مِنْ عَدُوِّه، فاسْتَغَاثَه الذِّي منْ شيعَتِه عَلَى الذِّي منْ عدُوِّه فَوَكَزَه مُوسَى فقَضَى عَلَيهِ"[11]

2- الشِّيعَة اصْطِلاحًا:

أتت لفظَة "شِيعَةُ" بدايةً من تشيَّع لشخْصٍ أي نَاصَرَهُ وأيَّدَهُ، ثم امتدَّت لتُطلَق على مُنَاصري حق عليّ وأولادِه في الخلافةِ بعد مقتلِه، ومن أهم ما يُؤمِنُ به الشِّيعَة هو **"الإمَامَة"**، إذ تعتقد فرقُ الشِّيعَةِ كَافَّة بوجود إمامٍ يرثُ العِلم عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو المسؤولُ عن قيادةِ الأمَّةِ الإسْلامِيةِ بتكليفٍ مِنَ الله عزّ وجل، فَفِي الاعتقَاد الشِّيعيِّ أنَّ الله تعالى لنْ يَتْرُكَ الأمَّة الإسْلامِيَة بدُونِ قائدٍ مُكَلَّفٍ.

وقِوامُ هذا المِذْهبِ مَا ذكرهُ "ابن خلدون" في مُقدَّمَتِه حين قَالَ :"إنَّ الإمَامَةَ ليسَتْ مِنْ مَصَالِحِ العَامَّة التِّي تفوَّض إلّى نظَر الأمَّة، ويَتعيَّن القائمُ فِيْهَا بتعيينِهِم، بلْ هي ركنُ الدِّين وقاعدةُ الإسلامِ، ولا يجوزُ لنبيٍّ إغفَالها، وتفويضهَا إلى الأمّة، بل يجبُ عليهِ تعيينُ الإمامِ لهُم ويكون معصومًا عن الكبائِرِ والصَّغائر"[12]

يفهم من هذا القَول إنَّ الإمامةَ في نظَر الشِّيعَةِ حقٌ سماويٌّ مشروعٌ، لأنّ الله سبحانَه وتعَالى سيُعيّنُ شخصًا في الأمّة عن طريقِ النبّي صلى الله عليه وسلم، ومن أهمّ ما يميِّز هذا الإمام المختار هو العصمةُ من الأخطاءِ كلِّها دقيقِها وجلِّها..

ويتكررُ مصطلحُ الشِّيعَةِ في كثيرٍ من رواياتِهم وأحاديثهم، وهم يزعُمونَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو "الذِّي غرسَ بذرةَ التشيّع وتعّهدَها بالسَّقي حتّى نمَت وأينعَت"[13]

ولم يكُن الشِّيعَةُ على درجةٍ واحدةٍ، بل كان منهُم الذِّين غَالوا في تقديرِ عليٍّ وبنيهِ، ومنهُم المعتدِلُون الذين ثبت عنهم تفضيلُ عَليٍّ على كلِّ الصَّحابَةِ من غير تكفيرِهِمْ لأحدٍ منهُم، ومن أشهَر الفرقِ الشِّيْعيَّةِ "الشّيعَةُ الإمَامِيَةُ".

***التَّعريف بالشِّيعَة الإمَامِيَة الاثني عُشُريَّة:**

الشِّيعَةُ الإمَاميَةُ هي "فرقةٌ لهَا عدَّة أسماءٍ، فإذا قِيلَ عنهُم الرافضَةُ فهمُ الذِّينَ يرفُضُون إمَامَة الشَّيخينِ أبِي بكرٍ الصِّدِّيق وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنهُما، ويسبُّون ويشتُمون أصحَاب النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا قِيلَ عنهُم الشِّيعَةُ فهُمُ الذِّينَ شايَعُوا عليًّا رضي الله عنهُ على الخصوصِ وقالُوا بإمامتِه، واعتقدُوا أن الإمامَة لا تخرجُ من أولادِه.

وإذا قيل لهُم الاثنا عُشَرِيَّة فلاعتقَادهِم بإمامَة اثنَي عشَر إمامًا، آخِرهُم الذِّي دخَل السِّرْدَاب وهو محمد بن الحَسَن العسْكَرِي. وقدْ قِيلَ لهُم الإمَاميَة لأنَّهُم جعَلُوا الإمَامَة ركنًا خامسًا مِنْ أركَانِ الإسْلام"[14]

إنَّ أهمَّ مَا تقومُ عليهِ هذهِ الفرقةُ هو "الإمامَةُ"، والمراد بالإمامَةِ عندهُم منصِبٌ إلهيٌّ يختارُه اللهُ تعالى بسابقِ علمِه بعبادِهِ، ثم يأمُرُ النبَّي صلوات الله عليه بأَن يدُلَّ الأمَّة عليهِ، كمَا يأمرُهُم باتِّباعِهِ. ليكون مدلولُ الإمامَةِ حسْبَهُم استمرارًا للنُّبُوَّةِ، ومن لا يؤْمِن بِهَا –في اعتقادِهِم– كافرٌ لأنَّهُ خالَف ركنًا عظيمًا مِنْ أركَان الإسْلام.

ثالثا/نبذةٌ عن حياةِ الشَّاعِرِ الشَّريفِ الرَّضِي وعَقِيدَتِهِ:

الشَّريفُ الرَّضِي هوَ "محمد بن أبِي أحمَد الحُسين بنُ مُوسَى بن محمَّد بن مُوسَى بن إبراهِيم، بن مُوسَى الكَاظِم بن جعْفر الصَّادِق، بن محمَّد الباقِر، بن عليّ زين العَابِدِين بنُ الحُسَينِ، بنُ عَلِيّ بنُ أبِي

طَالِبٍ"[15]، منْ أصلابِ هذَا النَّسَبِ العَرِيقِ الذِي يرتَفِعُ إلى أميرِ المؤْمِنِينَ عليِّ بنِ أبِي طالب رضِيَ اللهُ عنهُ وُلِد الشَّرِيفُ الرَّضِي، وفِي دَارِ جَاهٍ وعِزٍّ نشَأَ وترَعْرَعَ، وقدْ كانت مطامحُه كبيرةً، حقق بعْضَها وخابَ سعيُه فِي البَعْض الآخَرِ.

تقلَّد الرَّجُلُ عِدَّةَ مَنَاصِبَ ذاتَ شأنٍ منهَا نقَابةَ الطَّالِبِيّين سنَة (1500هـ) بالعراقِ، وفِي السَّنةِ الموالِيَةِ قُلِّد إمارةُ الحَجِّ، فارق الشَّاعِرُ الحَيَاةَ مُبَكِّرًا، وهوَ لمْ يتجَاوَز السَّابِعَة والأربعِينَ مِنْ عُمرِهِ سنَة (**406هـ**).

وإذَا مَا عُدنَا إلَى الحديثِ عنْ عقيدَتِه فإنَّنا نجِدُ أنَّ إمَاميَّتَه واضِحةٌ ومُصَرَّحٌ بِهَا فِي أكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، ويُمكِنُ لنَا أنْ نستدِلَّ علَى كلامِنَا بأبياتٍ منْ قصيدَتِه المشهُورة "كَرْبَلاء"، حيثُ تطرَّق فيهَا إلى ذِكْر الأئِمَّة الاثني عشَر يقُولُ فيهَا[16]:[الرمل]

مَعْشَـرٌ مِنْهُـم رَسُولُ اللَّهِ والكَـا	شِفُ لِلْكَرْبِ إذَا الكَـرْبُ عَـرَا
صِهْـرُهُ البَـاذِلُ عَنْـهُ نَفْسَـهُ	وَحُسَـامُ اللَّهِ فِي يَـوْمِ الوَغَـى
أَوَّلُ النَّـاسِ إلَى الدَّاعِي الـذِّي	لَـمْ يُقَدِّمْ غَيْـرَهُ لَمَّـا دَعَـا
ثُمَّ سِبْـطَـاهُ الشَّهِيـدَانِ فَـذَا	بِحُسَـى السُّـمِ وَهَـذَا بِالظُّبَـا
وَعَلِيّ وابْنُه البَاقِـرُ والصَّـادِقُ	القَـوْلِ، وَمُـوسَى وَالرِّضَـا
وَعَـلِيّ، وأَبُـوهُ وابنُـهُ	والذِّي يَنْتَظِـرُ القَـوْمَ غَـدَا

فالشَّاعِرُ—إذَنْ- مِنْ كِبَارِ رِجَالَاتِ الشِّيعَةِ الإمَامِيَّةُ، وهُوَ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ الأعْظَمِ وإمَامَةِ الأئِمَّةِ الاثني عَشَر، وقَد خصَّ مُؤَلَّفًا من مؤلَّفَاتِه للحَديثِ عنهم، يقُولُ فِي مفْتَتَحِ كتابِهِ "خصَائِصُ الأئِمَّة": "كنتُ -حفظ الله عليكَ دينَك، وقوَّى فِي ولاء العترةِ يقينَك- سألتنِي أن أصنِّف لكَ كتابًا يشتمِل على خصَائِصِ الأئِمَّة الاثنَي عشَر صلواتُ الله عليهِم.."[17] إلى أن يقُول: "إلى أن أنهضَنِي ذلكَ اتِّفاقٌ اتَّفقَ لِي، فاستثَار حَمِيَّتِي، وقوى نيَّتِي، واستخرَجَ نشَاطِي، وقدَح زنَادي..."[18]

رابعا/مَرْجعيَات الفِكْر الشِّيعي لدَي الشَّريف الرَّضِي وتجَلِّياتُها الثَّقَافيَة فِي شِعْرِه:

1- الولاءُ المطلقُ لأهلِ البيتِ:

جاءَ الوَلاءُ لأهل البيتِ مصرَّحًا بِهِ فِي أكثر من موضعٍ فِي قصائِد الشَّاعر، ومن المواطِن التي جَاهرَ فيهَا الشَّريفُ الرَّضِي بولائِهِ وتشَيُّعِهِ لعَلي أبياتٌ يقْصِر فِيهَا المدحَ على أهلِ البيتِ يقول[19]:[الطويل]

ومَا المَـدْحُ إلَّا فِي النَّبـي وآلِـهِ	يُرامُ وبعضُ القَـوْلِ مـا يتجَنَّـبُ
وأُوْلِي بِمَدْحِي مَنْ أعِـزُّ بِفَخْـرِهِ	وَلَا يَشْكُـرُ النَّعْمَـاءَ إلَّا المُهَـذَّبُ
أَرَى الشِّعْـرَ فِيهِـمْ بَاقِيًا وكَأَنَّمَـا	تُحَلِّقُ بالأَشْعَارِ عَنْقَـاءُ مُغْـرِبُ

أَعُدُّ لِفَخْـــرِي فِي المَقَـــامِ مُحَمَّدًا وَأَدْعُـو عَلِيًّا لِلْعُلَى حِيْنَ أَرْكَـــبُ

ومن جُملةِ المعتقدَاتِ الشِّيعِيَةِ التِّي تُثبِتُ ولاءَه لأَهْلِ البيْتِ ما يلي:

أ– حديث "الغديـر":

يعد "حديثُ الغدِيرِ" من الأحاديثِ المهمَّةِ التي أولاها الشيعَةُ اهتمامًا بالغًا مقارنةً ببقيةِ الأحاديثِ، فهو –في اعتقادهم– الدّليلُ الصريحُ على أحقيةِ علي في الإمامةِ، إنهم يرون أن ولايتَهُ تُوجَب على جميعِ المؤمنِينَ بعدَ ولاية اللهِ تعَالى وولايةِ رسولِه المصطَفَىَ، إذ لمْ يتوانَوا في وضعِ الإضافَات التِّي تُعطِي لهُم مشروعيَةَ المغَالاةِ في التشَيُّع لعليٍّ كرَّم اللهُ وجهَهُ، كقولِهِم على لسَانِ الرَّسُولِ صلَّى الله عليه وسلَّم "فمَن كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ، اللهُمَّ والِ منْ والَاه وعَادي من عَادَاه"[20]، وإنَّنَا لا نعدمُ في قصَائِدِ الشَّرِيفِ الرَّضِي إشَاراتٍ صريحَة لحدِيث الغَدِير الذِّي أعطَى لعليٍّ الحقَّ في الولايةِ والإمارةِ يقُول[21]:[مجزوء الكامل]

غدَر السُّرورُ بِنَـــــا وكَـــــــانَ وفَـــــاؤُه يـــــومَ الغَدِيـــــر

يَـــــومَ أطَـــافَ بـــهِ الوصِـيُّ وقَـــد تلقَّـــب بالأَمِيـــــر

توسَّل الشاعر الاستعارةَ المكنية كأداةٍ إقناع يمرِّرُ مِنْ خِلالهَا مُعتقَدَه الشِّيعيَّ الرَّاسخَ، محيلاً إلى يوم غدير خم، وقد تمَّ تشْخِيص "السُّرور" وهو شيءٌ معنويٌ للتَّعبير عنْ فظاعَة الآلام، وحجم المآسِي التِّي لازمت أشياعَ عليّ لزمنٍ طويلٍ، فجفَاهُم السُّرور الذِّي اتَّخذ يوم الغَدير مدخلًا الى قلوبِهِم، بعد أن تمَّت فيهِ الوصيَّة التِّي تقرُّ بحقِّه في الإمَارة بعدَ وفاةِ النَّبي صلىَّ الله عليهِ وسلَّم.

يُسلِّم الشَّاعر بوَصيَّةِ الإمامَة والولايةِ، وهذا التسليمُ ظاهرٌ في قوله:(يَـوْم أَطَـافَ بـِهِ الوَصّي)، فالوصايَةُ التي تركَها هي بعض الأحاديث الموضوعَة منْ قبل الشِّيعَة، يزعمُون أنّها تحث على أحقيته الإمَارة التِّي أشَار إليهَا بقَولِه: (**وقد تلقَّب بالأَمِير**).

ويحتجُّ الشِيعَة عمومًا على أحقيةِ عليّ بالخلافَة، بما يزعمُونهُ من وصيةٍ جاءَت بها الآيةُ الكريمةُ "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بلِّغ مَا أُنزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ وإنْ لمْ تفعَل فمَا بَلَّغْتَ رسَالَتَه واللهُ يعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللهَ لَا يهْدِي القَوْمَ الكَافِرِين"[22].

على الرَّغم مِن أن مُراد الآيةِ القرآنيةِ هو التعميمُ: "بلِّغ مَا أُنزِلَ إلَيْكَ" ؛ أي تبليغ جميع ما أُنزل على النبي صلوات الله عليه، وذلكَ ما دلَّ عليه الاسم الموصول "ما" ، إلا أن الشِّيعَة يستدلُّون بهَا في تخصِيص التبليغِ بشَأن عليّ وقضيةِ الإمامَة وهوَ ما يرفضُه المنطق، لأنَّه يمُكن لأيِّ مدعٍّ في هذهِ الحَالةِ أن يُدرجَ تحتهَا الاسم الذِّي يشَاء.

ونجدُ دليلًا قاطعًا على رَفضِ علي ادِّعاء ولايتِه في قَولِه:" إنَّا لنرَى أبَا بَكر أحقّ النَّاس بهَا–أي الخلافَة– إنَّه لصَاحِبُ الغَارِ، وثانِي اثنين، وإنَّا لنعْرِفُ لهُ سنه، ولقَد أمرهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله بالصَّلاةِ وهُوَ حيّ"[23]

وأميرُ المؤمنينَ عليّ لم يقُل بالحقّ الإلهي الواردِ في كُتُب الشِّيعَة بل قَال: " إنَّهُ بَايعَني القَومُ الذِّين بَايعُوا أبَا بَكر، وعُمر، وعُثمَان فلمْ يكُن للشَّاهِدِ أن يَخْتَار ولا للغَائب أن يَرُدَّ إنمَّا الشُّورى للمُهَاجرينَ والأَنْصَار"[24] هكَذا تكُون الإشارةُ إلىَ حَديثِ الغَدِير مِنَ الإحَالاتِ الجليَّة على قضية الخلافة وَالولاءِ التِّي ظلَّتْ تتَسَرَّبُ إلَى قَصَائد عديدة في متنِه الشِّعري.

ب– يوم الكِسَـاءِ ومَسْألةُ التَّطْهِيـر:

يرَى الشِّيعَةُ أنَّ النَّبِيَّ ميَّزَ عددًا منْ أهلِ بيتِه ثمَّ دعا اللهَ أن يطهِّرهُم فنزلَت الآيَةُ تقُول: "إنَّمَا يريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكُم الرِّجسَ أهلَ البيْتِ ويُطهِّركُم تطْهيرًا"[25]، فمِن وجهةِ نظرِ أنصار عليٍّ أن الله طهَّر أهلَ الكسَاءِ وشهدَ لهُم بالطَّهارة المطلقَةِ وهي ترادِفُ العصمةَ، وقد اتَّفقَ الإماميةُ على "عصْمَة الأئمَّة –عليهم السَّلام من الذنوبِ صغيرِهَا وكبيرهَا فلا يقعُ منهُم ذنبٌ أصلًا لا عمدًا ولا نسيانًا ولا لخطأ في التَّأويلِ ولا للإسْهاءِ من الله سبحَانَهُ"[26].

وقدْ كانَ هذَا الاعتقَادُ حاضرًا في شعْر الشَّريف الرَّضي، إذْ يَرى أنَّ الحُسينَ كان مستهدفًا بالقتلِ لما علم عنه الخصومُ من مكانةٍ عاليةٍ، فهوَ خامسُ أصحابِ الكسَاء بعد النبِّي صلى الله عليه وسلمَ وابنتِه فاطمة و ابن عمِّه عليّ والحسَن، فهؤلاءِ هم الذِّين اختصُّوا بالعصمةِ وهي من أكبرِ الأركانِ التي يقومُ عليها المعتقدُ الشيعيُّ، وبقتل الحسَين تدميرٌ لأهمِّ أعمدةِ الدِّين حسبَه يقول[27]:[الرمل]

يا قَتيلًا قَـوَّضَ الدَّهْـــــــرُ بِهِ عُمُـدَ الدِّينِ وأعـــــلامَ الهـُدَى
قتلُوهُ بعدَ عِلْـــــــــمٍ منهُـــمُ أنـَّهُ خَامِسُ أصْحَابِ الكِسَـــــا

جـ– مُعتَقدُ المهْديَّةُ والرَّجْعَةُ:

تُؤمنُ فرقُ الشِّيعةِ عامَّة بالإمَامِ الخَفيِّ أو الغَائِب، فهوَ في اعتقادِها لمْ يمتْ وإنمَّا هو مختفٍ عن الناسِ، وسيعودُ للظّهور في المستقبلِ مهديًّا، ولا تختلف هذه الفرقُ" إلَّا في تحديدِ الإمامِ الذِّي قُدِّرت لهُ العودةُ، كمَا تختلف في تحديدِ الأئِمَّة وأعيانِهم والتي يعتبر الإمامُ الغائبُ واحدًا منهُم"[28].

ثم شاعَ التوقُّفُ على الإمامِ وانتظارِ عودتِه مهديًّا بعد ذلكَ بين فرقِ الشيعةِ، فبعد وفاةِ كلّ إمامٍ من آل البيتِ تظهرُ فرقةٌ من أتباعِه تدَّعي فيهِ هذه الدَّعوى وتنتظرُ عودتَه، وتختلفُ فيمَا بينهَا اختلافًا شديدًا

في تحديدِ الإمام الذي وقفت عليهِ وقُدّرت له العودةُ-في زعمهم- فهم في "انتظارِهم الإمامَ الذي انتظروه مختلفُون اختلافًا يلوحُ عليهِ حمقٌ بليغٌ"[29]

ويشكِّلُ الإيمانُ بشخصيةِ المهْدِي المنتظَر عندَ الاثني عُشَرِيَّة الأَصلُ الذِّي ينبَني عليهِ مذهبُهم، والقَاعِدةُ التِّي تقومُ عليهَا بنيةُ التَّشيُّع عندَهُم، إذ بعْدَ انتهَاء وجودِ أئِمَّة الشِّيعَة بوفاةِ الحسَن العسْكَري أصبحَ الإيمانُ بغيبةِ ابنه المزعومِ المحور الذي تدورُ عليه عقائدُهم والأساس الذي يمسكُ بنيانَ الشِّيعة من الانهيارِ.

ولما كانَ الشَّريف الرَّضي من رجالاتِ الشَّيعَة الاثني عُشُريَّة، فلا شكَّ أنَّه يُؤمنُ بما يؤمنُون، ويعتقدُ مَا يعتَقِدُون، ويظْهَر إيمانُه بالمهديِّ المنتظَرِ في محطّاتٍ بارزةٍ من شعرِه، يقولُ في إحدى قصائده متوعِّدا بني أمية[30]:[البسيط]

بنِي أُميـَّة ! مَا الأسْيَـــافُ نَائِمَـــةٌ عَـنْ سَاهِرٍ فِـي أَقَاصِي الأَرْضِ مَوْتُورِ
والبَارِقَـاتُ تَلَـــوَّى فِي مَغَامِـــدِهَـا وَالسَّابِقَاتُ تَمَطَّـــى فِي المَضَامِيـــرِ

يضطلِعُ أسلوبُ النِّداء بدورٍ أساسيٍّ في لفت الانتباهِ إلى ما سيُقال، ثم يتلُوه النفي مباشرةً "ما" الأسيافُ نائمةٌ، ليشكِّل دال "الأسياف" بؤرة توترٍ لما يحمِلهُ من دلالةِ الحَربِ والفتكِ، إذ "يصبحُ السِّلاحُ أو يكادُ القيمَةُ الحقيقيَّة الوحيدَة"[31]، إذ بهِ-في اعتقاد الشاعر- تعودُ الحقوقُ المغتصبةِ من احترام للذَّات، ولقيمِ الجماعَة، واسترداد الخلافَة الضّائعَة، ورفع الظّلم عن أهل البيت، كل هذا سيتحقَّق من خلالِ المهْدي المنتظرِ الذّي سيشهرُ سيفَه ضدّ قوى الظُّلم والطغيان ويملأ الأرضَ عدلًا بعد أن مُلئت جورًا.

ويعدُّ المهدي المنتظر في هذه الأبيات المخلصُ الوحيدُ من الاضطهاد، وبه يتعلقُ أملُ الشِّيعة عمومًا في أخذِ الثأرِ منَ القتلَة وتحقيقِ العدْل فالمهْدي إذَن "هو المسيحُ في صُورةٍ إسْلاميَة"[32]. وتزداد قيمةُ الدّوال "الأسيافُ"، و"البارقاتُ"، و"السَّابقاتُ" بعد إخضاعِها إلى آليَة الأنسَنة، وقد كان الشَّاعرُ موفَّقًا في تصويرِه حدَّ ما جعَل الصُّورة تتراءى لنا شيئًا بصَريًا محسُوسًا.

وإذا كَانَ مِنْ مبَادئ الشِّيعَة توسُّلَ مبدَأ التقيَّة لإخفَاء معتقدَاتِهم خَوْفًا من بطش السلطة فإنَّ الشَّريف الرَّضي نأى عن مبدأ التقيَّة، الذي يختفِي بدوره أمام الذات اللاواعيةِ للشاعر ويتجسَّد تأثيرها واضحًا في انتظار رجعةِ المهديِّ الغائبِ، ويوجزُ الشَّاعر هذا التَّمني في شبه استشرافٍ أو نبوءةٍ فيقول[33]:[البسيط]

إنِّي لأرقُـــبُ يومًا لا خفَـــــاءَ لَـهُ غُرْبَانُ يَقْلقُ منهُ كـلُّ مغـــــرورُ
وللصَّـــوارمِ مَا شَاءَتْ مضَارِبُهَا مِنَ الرِّقَابِ شَـــراب غيْـر مَنْزور

ويقول في موضع آخر أكثر تصريحا بإيمانه برجعة الإمام الغائب، حين يعدد الأئمة الاثني عشر ومنهم المهدي المنتظر:[الرمل]

وَعَــلِيّ، وأَبُــوهُ وابنُــــــــــــهُ والذِّي يَنْتظِـرُ القَــوْمُ غَــــــدَا

2- قداسَةُ أرضِ الطَّف ويوم عاشُوراء:

تُظهِرُ قداسةُ الزَّمان والمكان في مراثِي الشاعر المذهبيةِ بعدًا شيعيًّا، حيثُ كانَ لا يفوِّتُ فرصَةَ الوُقُوفِ بأرضِ الطَّف وتذكُّر أحدَاث الفَاجِعة الكَربلائيةِ، وهُوَ بذلكَ يصنعُ طللًا جديدًا يرتبطُ ارتباطًا وثيقًا بالهمِّ الحسينّي الكربلائِي يقُول[34]:[الكامل]

هَذِي المنــازِلُ بالغَمِيــمِ فنَادِهَــــــــا واسْكب سخيَّ العيْـنِ بعْدَ جمَادِهَـا
إنْ كــانَ دين للمعالــمِ فاقْضــــــه أو مُهْجَـة عنْـد الطُّلــولِ فنَادِهَــا
شغَلَ الدُّمُــوعَ عـنِ الديَـارَ بكـاؤُهَـا لبُكَاء فَاطِمَةٍ علَى أولادِهــــــــــا

انحرف الشَّاعر عنِ الوقفةِ الطللية القديمَة إلى وقفةٍ أعظم وأجلّ، فيها يبكِي الفَاجِعةِ الكربلائيةِ عميقا، ذلك الحدثُ التاريخي الدفين الذي يسري في عروقِهِ وحركةِ أعصابِهِ "وفي الموروثاتِ العضويةِ قبل التوَارث الرّوحِي والثقافِي الذي تنقلُه الطقوسُ والتقاليدُ الدينيةُ والاجتماعيةُ"[35]، ليصنع من تأثير الموروثات التاريخيةِ طللًا، برائحة الموتِ ولون الدّماء، طللًا ما زال محافظًا على صليلِ السّيوف ووقعِ النِّبال ومشاهدِ القتلى[36]:[الكامل]

قِـفْ بي، ولوْ لوْثَ الإزَار، فإنَّمَــــا هِيَ مُهجَـة عَلِقَ الجَوَى بفُؤَادِهَـا
بالطّفِّ حيثُ غَـدَا مُــــراقُ دمَائنَا ومنــاخُ أينقِهَــا ليَــوْمِ جِلادِهَــا
القفرُ مِـنْ أرواقِـــــهَا والطَّيـرُ مِنْ طرَّاقِهَـا، والوحشُ مـنْ عــــوَّادِهَا

هكذَا يبني الشاعر جلّ ذكرياتِه المكانية على حركةِ الإنسان المفقودِ داخل النص، معتمدًا على ذاكرتِه التي تتمَادَى في بعث الشخصياتِ، وبسط الأحداثِ فصولًا، ومشاهد لتنتهي به إلى بكاء يوم الفاجعة الحسينية[37]:[الطويل]

تذكَّرتُ يومَ السَّبطِ مِنْ آلِ هاشِمٍ ومَا يومُنَا مِنْ آلِ حـربٍ بواحِــدِ
وظَامٍ يريــغُ المَاء قَدْ حِيلَ دُونَــهُ سقَوه ذُبابَـاتِ الرقَــاقِ البَــــوارِدِ
أتَاحُوا لَــهُ مرَّ الموارِدِ بالقَنَــــا عَلَى ما أبَاحُوا مِنْ عِذَابِ المـوَارِدِ

يعودُ الشاعر في هذه الأبيات إلى يوم عاشُوراء، حيث يتذكَّرُ من خلالهِ الحُسين وأنصاره وهم يعانُون الظمأَ وقد حال بنُو أمية بينهم وبين الماء لمدة ثلاثة أيام كاملةٍ، ثم يبكي الشاعرُ يوم عاشوراء في قصيدة أخرى بشكل ملحمي، تتجلى فيها روح الشاعر في أسئلة إنكارية فجائعية[38]:[الرمل]

كَرْبَـــــلَاء، لَازلْتِ كَرْبًـا وَبَـــلَا مَا لَقِي عِنْـدَكِ آلُ المُصْـــطَـفَى
كَمْ عَلَى تُربِكِ لَمَّـــــا صُـرِّعُـوا مِنْ دَمٍ سَـالَ وَمِـــنْ دَمْعٍ جَـــرَى
لَمْ يَذُوقُوا المَـاءَ حَتَّى اجْتَمَـعوا بِحدَا السَّيفِ عَلَـى وِرْدِ الـــرَّدَى

ما فتئ طلل الحادثة التاريخية يعرّي ذاكرتَه ليدميهَا، ويستلُّها من قسَاوة الحاضر إلى زمن مضَى، وفي ارتدادِها عودةٌ تُوهِمُنا بانسِلَالِ المخرازِ مِنَ الجُرح، لنكتشِف في النّهايةُ أنَّه الانغراز بعينهِ! يقول[39]:[الكامل]

يَـا يَـوْمَ عَاشُوراءَ كَمْ لكَ لَوعَـــةٌ تترقَّصُ الأَحْشَـاءُ مِـنْ إيقَـــادِهَا
مَـا عُدْتَ إلَّا عَـادَ قلـــبَي غُلَّـــةٌ حرَّى ولَـوْ بَالغْتُ فِي ابـــرادِهَـا
مثلُ السَّلِيمِ مَضِيـــضَةٌ آنَـــاؤُه خُزرُ العيُونِ تعُودُه بعـــدادِهَـــا

لم تكن أرضُ الطَّفِّ في شِعْر الشَّريف الرَّضي مكانًا مُحايدًا يعْبرُه دونَ أن يأبهَ به، وإنَّما كانت حياةً بشُخُوصِهَا وأحداثِها وأزمنتِهَا، فالمكانُ "في مقْصُوراتِه المغلقَةِ التِّي لا حَصْرَ لهَا يحتوِي على الزَّمنَ مكثَّفًا"[40]، والزَّمن في الأبياتِ فجائعيٌّ ملحميٌّ يدفعُ الشاعر إلى الوقوفِ بأرض الطَّف يوم عاشورَاء من كلِّ عام ليبكي الملحمةَ الكربلائيَة عميقًا.

3- استِحْضَار الشُّعورِ القَديمِ للشِّيعَـة بالخَطيئَـة:

إن وراء العَاداتِ الغريبةِ التي يمارسُها الشِّيعةِ بوجهٍ عام من لطمٍ، وزنجيلٍ، وتطبيرٍ عقدة نفسيَّة ما، فليسَت تلك المَمارسَات تعبيرا عن الحزنِ بقدر مَا هي طرائقٌ للتَّكفير عن شعورٍ خفيٍّ بالخطيئَةِ، هي عقدةٌ جعَلت الشِّيعيَّ يفرضُ على نفسِه اغترابًا وقسوةً فظِيعَين، إنَّه لا ينفك يحمِّلُ ذاتَه جريرةَ قتلِ عليٍّ بن أبي طالب، وغدرِ الحسَن بن عليٍّ، وتقطِيع جسدِ الإمَام الحُسَينِ، فهُو ذاكَ الجسدُ الذِّي يعترفُ بالخطيئَةِ، ويريدُ أن يتخلَّص منْ وزرِهَا، لأنَّه إن لمْ يفعَل يظلُّ خائنًا تاريخيًّا ودينيًّا. فحين يتسَاءل الشَّاعِرُ بلغةٍ باكيةٍ في قوله[41]:[الخفيف]

أتُرانِي أُعِيـــــرُ وجْهِي صَـوْنًا وعلَى وجـــهِهِ تجُولُ الخُيُـــولُ
أتُرانِي ألَـذُّ مَـــــــاءً ولمَّـــا يُرو مِنْ مُهْجةِ الإمَامِ الغليـــلُ

بِلُغَةٍ استِنكَارِيةٍ باكيةٍ يستحضرُ الشَّاعرُ الشُّعُورَ بالذنَّب والخطيئةِ، فيندغمُ الأسلوبُ الإنشائيُّ معَ الصُّورة الشِّعريةِ لنقْلِه للقَارئ، إذْ يجدُ المتلَقي نفسَه أمَامَ صُورةٍ مأساويةٍ فيهَا صيَّر الشَّاعر وجهَ الحُسين معترًكا فيه تجولُ خيولُ الغَادرينَ، وفيه تُنكِّل به، وفيه أيضا تذيقُه ألوانَ التَّعذيب، فكَانت الاستعَارة المكنية أبلغ الأدواتِ نقلاً للحالةِ الشُّعورية المتحكِّمة في الشَّاعر، إنهُ يعيدُ بلغتِه البَاكيةِ الشُّعُور القَديمِ للشِّيعَة بالخَطيئَةِ وكأَّن لسَانَ حالِه يقُول: **"دعَونَا ابنَ بنتِ نبيِّنَا فبخلنَا عنهُ بأنفسِنَا حتَّى قتَل إلى جَانبنَا، لا نحنُ نصرنَاهُ بأيدِينَا، ولا جادلنَا عنهُ بألسِنتنَا، ولا قَوَينَاه بمالِنَا، فمَا عُذرنَا إلى ربِّنَا، وعند لقَاء نبينَا** [42]"

4- المنَادَاة بالثَّأرِ تحْتَ شِعَار "يا لثَاراتِ الحُسَين":

أدَّى استشْهَادُ الحُسَين في كربَلاء إلى شقِّ الصَّف المسلمِ إلى الأبدِ، ولم يكُن لنارِ الشِّيعةِ أن تهدأَ إلا بالانتقامِ لدمِ حفيد النبيِّ بإراقةِ دمَاء منْ ناصَبُوهُ العدَاء من بني أُميَّة، حيثُ أصبحَت فكرةُ الثَّأر مركزية في الوجدَان الشِّيعِي تمَامًا مثل "الشُّعورِ بالخَطِيئَة" لخذلانِ الحُسين، وصاحبَت هذه الفكرةُ الشيعةُ منذ كربلاء، ويلخِّصها شعارُ "يا لثارات الحسين".

من هنا يحق لنا أن نتساءل: كيف كَان نداء الشَّاعر بالثأر؟ هل كان مبطَّنا خفيًّا يحكمُه مبدأ "التقية"؟ أم معلنًا ظاهرًا؟ وإلى أي مدى أعاقَ مبدأُ التَّقيَّة رغبةَ الشَّاعرِ الدَّفينةِ في الثَّأر؟ أم أنَّ هَاجِسَ الانتقَامِ كانَ أكبَر منْ أن يُحدَّ بمبدأ وضعتهُ الجمَاعة؟

وإذا كان مبدأُ التَّقيَّة ما هُو إلا قِنَاع يرتدِيه الشِّيعةُ ليتَّقُوا بطشَ الأمويِّين والعباسيِّين من بعدِهِم فإنَّ القنَاع عادَةً ما يرمِي إلَى "خلقِ انطباعٍ مَا عندَ الآخَرين من جهَةٍ، وإلى إخفَاء وتوريةِ وتمويهِ طبيعَة الفردِ الحقَّةِ مِنْ جِهَة أُخْرَى"[43].

تظهرُ **أنيمَا**[44] الشَّاعر في مواجهَةِ تقيَّتِه، وهذه الأنيمَا هي التي تُفصحُ عن رغبتِهِ العميقَةِ في الثَّأرِ، لتُغيِّر مسَاره مِنَ النقيضِ إلى النقِيضِ، فبدَل أن يتستَّر خلفَ الرُّموزِ والأقنعَةِ لأخذِ الحِيطَة والحذَر هَا هي ذِي: "أنيماه" تعرِّي كلَّ قناعٍ وتكْشِفُه، بل إنَّها تكادُ توقِعُهُ في التَّهلكةِ، حيثُ يقول[45]:[الخفيف]

يَا بنِي أحمدَ ! إلى كـــمْ سِنَانِي	**غَائِبٌ عَـنْ طِعَانِـــهِ ممْطُـــــولُ**
وجِيَـادي مربُوطَـة، والمَطَـــــايَـا	**ومَقَامِي يـــــــروعُ عَنْـهُ الدَّخيـلُ**
قَدْ أذاعَ الغَليلُ قلْـــــبِي، ولكِـنْ	**غيْرَ بِـــدْعٍ إنْ استطَبَّ العليــلُ**
ليتَ أنِي أبقَى، فأمتـــــــرقُ النَّا	**سَ وفِي الكَـفِّ صَارِم مسْلُـــولُ**

يظهرُ حنق الشَّريف الرَّضي من خلالِ دال "الغليل" الذِّي جاءَ مطعمًّا ومشرَّبًا بكلُّ معَاني الثَّورة، منتفخًا بالحِقْد والغضَب، متورِّمًا بهمَا حدَّ ما يصيِّرُ من هذَا "الغَليلَ" مرضًا يستلزِمُ التدَاوي ككُلِّ مرضٍ خطيرٍ آخَر. ووحدةُ الثَّأرُ الدَّواءُ النَّاجِعُ الذي ينبغِي له أن يتناوله وبالجرعةِ المحدَّدةِ التي يصفُها القلبُ الفائضُ كراهيةً وحقدًا، وَصْفَةٌ تلائِمُ الدَّاءَ/ قتل الحسين ظلمًا، والأعراضَ الظاهرةَ/ ضياعُ الخلافَةِ، والتَّنكيل بالشِّيعَةِ.

فإذا كان الشَّاعر قدْ حَاولَ أن يتَسَتَّرَ مِنْ خِلالِ "الكناية" –كما رأينا– فإنَّ هَذَا التَّسَتُّر لمْ يدُم طويلًا حيثُ بدَت "تقِيتُه" منهزمةً أمامَ "أنيماه" التيِّ تدفعها رغبة الثَّأر حتى غدَتْ أمنيةً تستحِقُ التَّرقُّبَ والانتظَارِ، والعَيشِ من أجْلَ تحْقِيقَهَا[46]:[الخفيف]

لَيْتَ أَنيِّ أَبْقَـى، فَأَمْتَرِقُ النَّـــــــا سَ وَفِي الكَفِّ صَـــــارِمٌ مَسْلُــولُ

إنَّ تحوُّل الثَّأرِ إلى أمنيةٍ وهدفٍ لهو– لعمري– ذروةُ السُّقوطِ في العُنفِ، ليس هذَا فحَسب، بل إنَّ أمنيةَ الشَّاعرِ لمْ ترْدْ مطلقةً بل مقيَّدة بحَالَةٍ معيَّنةٍ فمَا كلُّ امتراقٍ مقبُولٍ، ووحدةُ الامتراقُ المقترِنُ بـ:(الصَّارِم المسْلولِ) يشْفِي غليلَه، إنَّهُ نوع من "العنف الانتقامي"[47] الذِّي تكُونُ فيهِ الأذِيَّةُ قدْ تمَّتْ سَلَفًا، ومَا الانتقام إلَّا ردَّ فعْلٍ علَى ضَررٍ وخسارةٍ وقَعَا، فعلى "الرَّغمِ منَ التَّماهِي الخَاص للأنَا الوَاعيَةِ مَعَ قنَاعِهَا، تكُون الذَّاتُ اللَّاواعِيَةُ، أيْ الفَردِيَةُ بمعْنَى أصَح، حاضِرةً دائمًا، وهيَ لمْ تتأخَّر عَنْ ممارسةِ تأثيرهَا فِي الاختيَارِ الذِّي تحقَّقَ، إذَا لمْ يكُن بصُورةٍ مباشرةٍ فبصورةٍ غيرَ مباشِرةٍ على الأقَلِّ".[48]

هكَذا يجدُ الشَّريفُ الرَّضيُ نفسَه مدفُوعًا إلى الثَّأرِ مأخُوذًا بهِ، وقدْ أيقنَ أنْ لا خلاصَ إلا بالسِّلاحِ، فمِن منظورِهِ ليس "هناكَ لغةً ممكنةً منْ قِوى التَّسَلُّطِ سِوَى لغةٍ مُمَاثِلَةٍ للُغَتهَا، لُغَة القسْوةِ، لُغَة الغلبَة"[49]، ووحدةُ الصَّارمُ المسْلولُ يردُ الحقوقَ المغتصَبة وعلى رأسها الخلافَة والإمامَة، ووحدةُ الثَّأر يحققُ للفردِ اعتبارَه الذَّاتي والجَماعيِّ ومن هنا يصبحُ فعلُ الثَّأر "لا فقَطْ بريئًا من الإثمِ ومبرَّرًا فحَسْب، بلْ مطلوبًا كواجِبٍ نبيلٍ هُو الدفاعُ عن الذَّات وكرامَتهَا وقدسيتها، أو الدِّفاعِ عنِ الجماعَةِ وقيمِهَا".[50]، فليس غريبا إذن أن تُسقط "الأنيما" عن الشَّاعِرِ كلَّ تقيَّة وحذَر ليجهَر بالثَّأر قائلا[51]:[الخفيف]

وأجرُّ القَنَـا لثَـــاراتِ يـَوْمِ الطَّـفِّ يسْتلْحِـقُ الرَّعِيـــلَ الرَّعِيـــــلُ

5– ترابُ قَبر الحُسَين شفَاءٌ مِنْ كلِّ دَاء:

ترَى فرقُ الشيعَةِ بأنَّ لترابِ قبرِ الحسَين بن عليّ القُدرة على شفَاء النَّاس مِنَ الأسقَام بشَتَّى أنواعِها، وهم بذلكَ يخالفُون ما جَاء في كتاب الله تعَالي" وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو"[52]، ويتجلَّى هذَا المعتقَد في قولِ الشَّريف الرضي[53]:[الرمل]

أَنْتُمُ الشَّافُــوْنَ مِـنْ دَاءِ العَمَــــــى وَغَـدًا سَاقُــوْنَ مِـنْ حَوْضِ الـــــرَّوَا

يعتقدُ الشِّيعةُ –ومنهم الشَّريفُ الرضي– أن الله عزَّ وجلَّ خصَّ الإمام الحسين بالكرامَة، وخصَّ تربتَه بالاستشفاء بهَا، فصار الناسُ يتداوون بطين قبره من العللِ، ويتفقهُون في كيفية التداوي بهَا، فكان الادعاء أن أخذَ التربةِ بحجم الحمصة كفيلٌ برد البصَر، والأمن من الخوفِ، والشفاء من كل داءٍ ما عدا السّام، ويروى –في هذا الشأن– أن رجلا سأل الصادق عن كيفية التداوي بها فقال:

"إني سمعتكَ تقولُ: إن تربةَ الحسين عليه السلام من الأدوية المفردَة، وإنَّها لا تمرُّ بداء إلا هضمَته.

فقال: قد كان ذلكَ أو قد قلت ذلك فما بالك؟

فقال: إني تناولتها فما انتفعت بها.

قال: أما إن لها دعاء فمن تناولهَا ولم يدع به واستعملها لم يكدْ ينتفع بهَا.

قال: تقبّلها قبل كل شَيء وتضعُها على عينيكَ، ولا تناول منهَا أكثرَ من حمصة فإنَّ منْ تناوَل منهَا أكثر فكأنمَّا أكلَ من لحومنَا ودمائنَا"[54]

ومن الروايات الموضوعَة حول قداسَة تراب الحسين قولهُم: "طينُ قبر الحسين شفاءٌ من كل داءٍ"[55]

ولم يقف الواضعُون للأحاديثِ عند هذا الحدّ، بل ذهبوا لأبعد من ذلك حين زعموا أن هناك أدعية معينة يقولها الراغب في الاستشفاء بالتراب، وإن أغفلها أو تغافل عنها لن ينتفع بشيء، ومن الأدعيةِ التي يجب أن تُقال حسب زعمهم– أثناء أخذ طين قبر الحسين: "اللهم بحق هذه التربَة، وبحق الملك الموكل بها، وبحق الملك الذي كربها، وبحق الوصيّ الذي هوَ فيهَا، صل على محمد وعلى آل محمد، واجعل هذا الطين شفاء لي من كل داء، وأمانًا من كل خوفٍ"[56]

خاتمة:

نخلص من كلِّ ما سبق إلى ما يلي:

– لم يكن ظهُورُ المرجعيَّات الفكريةِ للمذْهبِ الشِّيعي في شعْر الشَّريفِ الرَّضي مجَالاً لإظْهارِ براعَتهِ الفنيَّة ومقدرتِهِ الشِّعريَّة، بقَدر مَا كانَ تسَربًا في الخِطاب تحكُمه حالةٌ شعوريةٌ ورغبةٌ أيديولوجيةٌ يدعمُهما حبُ الثَّأر، والدَّعوةُ إلى استردادِ حقِّ الخلافَةِ المسلوبِ، ذلكَ الحق المزعومُ الذي يؤمنُ به أتباع علي عمومًا.

– أبَى الشَّريفُ الرَّضي إلاَّ أن يُجَاهر في قصَائدِه بمظلوميَةِ آل البيتِ وبرغبتِهِ العميقةِ في الثَّأر منَ الخصومِ، فعلىَ الرَّغمِ مِنْ أنَّ الشِّيعَة يؤمِنُونَ بمبدأ التقية إلا أنَّ الشاعر كان جريئا في الدِّفَاع عنْ معتقداتِهِ ونصرتِهِ لآل البيتِ.

– ظهَرت معتقداتٌ كثيرةٌ من معتقدَاتِ الشِّيعةِ في قصَائدِ الشَّاعِرِ أهمّها: القَول بالإمامَة، والعصمَة، حادثة يوم الكسَاء، حديثُ الغدير، الإيمَان بالمهدي المنتظَر مخلص الشيعَة من الظلم والطغيان، تقديسه لمكان وزمَان الحادثَة الكربلائيَة، المناداة بالثأر، قدرَة تراب قبر الحسَين على شفَاء النَّاس من كلِّ الأسقَام هذا إضافة إلى عقدة الخطيئة، تلك العقدة الغائرة في التاريخ والممتدة إلى يومنا هذا.

– صنع الشَّريفُ الرَّضي في بكائياتِه طللًا شيعيَّ المذهَب والمعتقَد، فيه كان يبكي الفاجعَة الحسينية الكبرى في يوم عاشُوراء من كل عَامٍ، فاستطَاع بذلك أن يلوِي عنقَ الموروث الشعريِّ القديمِ، ليصنع طللًا جديدًا خاصًّا بالشيعَة دونَ سواهُم.

– إن غنىَ المتنِ الشِّعري للشَّريف الرَّضي بالروافدِ الثقَافية عامَة والشيعيَّة منهَا على وجهِ الخُصُوصِ يفتحُ أمام الباحِثِ المجالَ واسعًا للغَوص في مكنونِ هذا النتاج الشعرِّي، لاستنباطِ دررِه التِّي لم تتمّ ملامسَتهَا، أو الالتفات إليها من قبلِ الدراسَات سابقا، التي كان من أكبرِ هواجسِها التركيز على تناولِ الجانبِ الجمَالي فيهِ، وإغفال ما يحمِله النَّص منْ مضمَرات تقِفُ وراءهَا العديدُ من المؤثِّرات الثقافية الخارجية.

هوامش:

[1] محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، مادة (ر.ج.ع)، المجلد3، (د.ط)، 2000، دار صادر (بيروت، لبنان)، ص107.

[2] إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مادة (ر.ج.ع)، (د.ط)، (د.ت)، المكتبة الإسلامية (إسطنبول، تركيا)، ص331.

[3] فاطمة الطبال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ط1، 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (الحمراء، بيروت)، ص67.

[4] محمد صابر عبيد، سوسن البياتي: المتخيل الروائي (سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا)، دراسة في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية، ط1، 2015، عالم الكتب الحديث (الأردن)، ص171.

[5] عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، 2003، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ص64.

[6] عبد الملك مرتاض: تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، 2005، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة (الجزائر)، العدد10، ص65.

[7] محمد بن الحسن بن دريد: جمهرة اللغة، ج3، ط1، 1345، مجلس دائرة المعارف العثمانية (بلدة حيدر آباد، الدكن)، ص63.

[8] سورة مريم: الآية/ 69.

[9] سورة الأنعام: الآية/ 159.

[10] سورة القمر: الآية/51.

[11] سورة القصص: الآية/ 15.

[12] محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، (د.ط)، (د.ت)، دار الفكر العربي (القاهرة)، ص30.

[13] ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (عرض ونقد)، المجلد1، ط2، 1994. (د.د.ن) (د.ب.ن)، ص37.

[14] ممدوح الحربي: موسوعة فرق الشيعة، (د.ط)، (دت)، تنسيق أعضاء شبكة الدفاع عن السُنة، (د.ب.ن)، ص06.

[15] الشريف الرضي: الديوان: شرح وتعليق وضبط: محمود مصطفى حلاوي، ج1، ط1، 1999، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم (بيروت، لبنان)، ص21.

[16] الشريف الرضي: الديوان، ص96.

[17] الشريف الرضي: تحقيق: محمد هادي الأميني، خصائص الأئمة، (د.ط)، 1406، مجمع البحوث الإسلامية (الآستانة الرضوية المقدسة، مشهد، إيران)، ص13.

[18] المرجع نفسه، الصفحة 13.

[19] الشريف الرضي: الديوان، ص172.

[20] محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج57، ط3، 1983، إحياء التراث العربي (بيروت، لبنان)، ص126

[21] المصدر نفسه، ص466

[22] سورة المائدة: الآية/67.

[23] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج6، ص 48.

[24] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج14، ص35.

[25] سورة الأحزاب: الآية/33.

[26] ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، المرجع السابق، ص775.

[27] الشريف الرضي: الديوان، ص95.

[28]ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: المرجع السابق، ص824.

[29]المرجع نفسه، ص825.

[30]الشريف الرضي: الديوان، ص517.

[31]مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، ط9، 2005، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، المغرب)، ص56.

[32] أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامية لدى الشيعة الاثني عشرية (تحليل فلسفي للعقيدة)، (د.ط)، 1991، دار النهضة (بيروت، لبنان)، ص403.

[33] الشريف الرضي: الديوان، ص ص517-518.

[34]المصدر نفسه، ص408.

[35]عزيز السيد جاسم: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، (د. ط)، (د.ت)، دار الأندلس (بيروت، لبنان)، ص25.

[36]الشريف الرضي: الديوان، ص410.

[37]المصدر نفسه، ص411.

[38]ا نفسه، ص93.

[39]ا نفسه، ص410.

[40]غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ط2، 1984، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، (بيروت، لبنان)، ص39.

[41]الشريف الرضي: الديوان، ص164.

[42] أحمد محمود صبحي: نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، المرجع السابق، ص341.

[43] كارل غوستاف يونغ: جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة: نبيل محسن، ط1، 1997، دار الحوار للنشر والتوزيع (سوريا)، ص117.

[44]الأنيما هي الذات اللاواعية التي تنبري لمواجهة القناع.

[45]الشريف الرضي: الديوان، ص165.

[46]المصدر نفسه، ص165.

[47] آريش فروم: جوهر الإنسان، ترجمة: سلام خير بك، ط1، 2011، دار الحوار للنشر والتوزيع (سورية)، ص29.

[48]كارل غوستاف يونغ: جدلية الأنا واللاوعي، المرجع السابق، ص63.

[49]مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، المرجع السابق، ص ص54-55.

[50]المرجع نفسه، ص194.

[51]الشريف الرضي: الديوان، ص165.

[52] سورة الأنعام: الآية/17.

[53] الشريف الرضي: الديوان، ص97.

[54] محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج57، ط3، 1983، دار إحياء التراث العربي(بيروت، لبنان)، ص157.

[55] جعفر بن قولويه القمي: كامل الزيارات، تحقيق: نشر الفقاهة، ط1، (د.ت). مؤسسة النشر الإسلامي، ص461.

[56] المرجع نفسه، ص ص 469-470.